محورية الوعي في البناء الحضاري من منظور القرآن: دراسة قرآنية اجتماعية

The Centrality of Consciousness in Civilizational Construction from the Perspective of the Qur'an: A Qur'anic Social Study

د. أحمد محمود أحمد: أستاذ مساعد في الفقه المقارن، ومساعد رئيس جامعة رابةرين للشؤون الإدارية والمالية، كردستان العراق.

Dr. Ahmed Mahmood Ahmed: Assistant Professor of Comparative Fiqh, Vice President for Administrative and Financial Affairs, University of Raparin, Kurdistan Region, Iraq.

Email: dr.ahmed@uor.edu.krd

تاريخ الاستلام: 2025-07-26 تاريخ القبول: 2025-09-15 تاريخ النشر 2025-10-01

الملخص:

يتناول هذا البحث قضية الوعي بوصفه الركيزة المركزية في البناء الحضاري، من منظور القرآن الكريم. فالحضارة، وإن كانت ثمرة عوامل متعددة ومتشابكة، فإنّ الوعي يظلّ العنصر الجامع الذي يمنح تلك العوامل تماسكها ويحوّلها إلى قوة فاعلة. وفي ضوء التحليل القرآني والفكري، يمكن الوصول إلى نتيجتين رئيستين: الأولى أنّ تعدد العوامل المكوِّنة للحضارة، على أهميته، لا يكتسب فاعليته إلا إذا تركز في إطار الوعي الذي يُعيد تنظيمها ويوجهها نحو الهدف الحضاري؛ والثانية أنّ الوعي لا ينحصر في النخبة الحاكمة، بل إنّ وعي الشعب يشكّل شرطًا موازيًا للبناء الحضاري، سواء من خلال استجابته للنخبة المصلحة أو عبر وعيه الراشد بحقوقه وتمسّكه بالتوقيت والآليات المناسبة لتحقيقها. وانطلاقًا من ذلك، يوصي البحث بتوصيتين أساسيتين: الأولى دعوة النخبة والشعب معًا إلى استلهام دروس التاريخ لاستخلاص الأخطاء والمزالق الحضارية؛ والثانية توجيههما نحو تعميق الوعي بالإجراءات والآليات التي تُسهم في إدخال الدولة في الدورة الحضارية الصاعدة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الوعي، البناء الحضاري، المحورية، الشعب، السلطة.

Abstract:

This research addresses the issue of consciousness as a central pillar in civilizational development, from the perspective of the Holy Qur'an. Civilization, though the result of multiple and interconnected factors, relies on consciousness as the unifying element that grants these factors cohesion and transforms them into an effective force. Based on Qur'anic and intellectual analysis, two main conclusions can be drawn: first, the multiplicity of factors constituting civilization, despite their importance, only becomes effective when concentrated within the framework of consciousness, which reorganizes and directs them toward the civilizational goal; second, consciousness is not limited to the ruling elite, as the awareness of the people constitutes a parallel condition for civilizational building—either through their responsiveness to the enlightened elite or through their mature awareness of their rights and adherence to the appropriate timing and mechanisms to achieve them. Accordingly, the study offers two primary recommendations: first, to urge both the elite and the people to draw lessons from history to identify past errors and civilizational pitfalls; and second, to guide them toward deepening awareness of the procedures and mechanisms that contribute to placing the state on an ascending civilizational trajectory.

Keywords: Holy Qur'an, consciousness, civilizational building, centrality, the people, authority.

المقدمة:

شهدت مسيرة الإنسان الحضارية على امتداد التاريخ تقلبات شديدة بين النهوض والانحدار، وقد احتلت مسألة "الوعي" موقعًا مركزيًا في هذا المسار، حيث يُعد "الوعي" الركيزة الأساسية التي ينبني عليها سلوك الأفراد والجماعات، ويُحدد بها اتجاههم في إدارة شؤونهم الاجتماعية والسياسية والثقافية. وإذا كانت الحضارات لا تقوم إلا على أسس فكرية ومعرفية سليمة، فإن "الوعي" يمثل القاعدة التحتية الأولى لبناء تلك الأسس. وفي هذا السياق، نجد أن القرآن الكريم أولى أهمية عظمى لتشكيل الوعي الإنساني، باعتباره مفتاح الهداية، ومنطلق الإصلاح، وأداة التغيير الحضاري. ومما لا يختلف فيه اثنان؛ أن القرآن لم يتوجه فقط إلى تصحيح السلوك، بل يحاول إعادة تشكيل العقل الجمعي والفردي، وغرس المفاهيم التأسيسية للوعي الراشد، سواء في تصور الإنسان لذاته، أو لعلاقته بالآخر، أو في فهمه للكون والحياة والمصير. وبذلك، يصبح الوعي في المنظور القرآني ليس مجرّد حالة معرفية، بل هو قوة حضارية قادرة على التأثير في مصائر الأمم.

من هنا تبرز إشكالية هذه الدراسة، التي تسعى للإجابة عن السؤال المركزي:

- ما طبيعة الوعي في القرآن الكريم؟ وكيف يمكن لهذا الوعي أن يشكّل الأساس الحضاري لنهوض الأمم وانبعاثها؟

وتنبثق عن هذا السؤال عدة تساؤلات فرعية:

- ما مفهوم الوعي في السياق القرآني؟
- ما الأبعاد النفسية والاجتماعية والمعرفية لهذا الوعي؟
- كيف يسهم الوعي في تأسيس حضارة قائمة على القيم والمعرفة؟
- ما هي الآليات والإجراءات التي حذر القرآن منها بغية الحد عن المحاولات القائمة لتزييف وتشويش الوعي الفردي والجماعي؟

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج التحليلي الاستقرائي في تتبع الآيات ذات العلاقة، والمنهج المقارن في ربط المفاهيم القرآنية بالمفاهيم الحضارية والفكرية لدى رواد الفكر الإسلامي القديم والمعاصر.

أهداف البحث:

1. تحليل مفهوم "الوعي" في النص القرآني بأبعاده الوجودية والفكرية.
2. إبراز دور "الوعي" في توجيه السلوك الحضاري للأمم والشعوب.
3. استنباط الآليات القرآنية لصناعة الوعي الراشد.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على إحدى أهم الوظائف القرآنية التي لم تحظَ بما تستحق من دراسة، وهي وظيفة تنمية الوعي الإنساني كآلية مركزية للبناء الحضاري والتغيير الاجتماعي الإيجابي، في زمن يعاني فيه العالم الإسلامي من أزمة وعي متعددة الأوجه، وهو ما ينعكس سلبًا على إمكانات النهوض والتنمية.

خطة البحث:

البحث يتكون من مدخل ومباحث ومطالب كالآتي:

- المدخل: وفيه أهم المصطلحات الواردة في البحث والتي تعد مدخلا أساسيا للدخول في جوهر البحث.
- المبحث الأول: مفهوم الوعي وقيمته في القرآن الكريم، وفيه مطلبان:
  - المطلب الأول: مفهوم الوعي في القرآن الكريم.
  - المطلب الثاني: قيمة الوعي في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: أخطاء البناء الحضاري في القرآن الكريم، وفيه مطلبان:
  - المطلب الأول: المفاسد السلوكية.
  - المطلب الثاني: الأخطاء الفنية.
- المبحث الثالث: آليات وإجراءات البناء الحضاري في القرآن الكريم.

مدخل تمهيدي:

يُعدّ هذا المدخل التمهيدي مدخلًا تأسيسيًا للولوج إلى جوهر البحث، إذ يتناول أبرز المفاهيم والمصطلحات المركزية التي يقوم عليها الموضوع، والتي تمثّل المفاتيح المفهومية الضرورية لفهم الإشكالية البحثية وأبعادها التحليلية والمعرفية.

أولًا: مفهوم الوعي:

أ- الوعي في اللغة:

يشتق مصطلح "الوعي" من الجذر الثلاثي (و-ع-ي)، الذي يدور في معناه حول الإدراك والحفظ والفهم. يقول ابن منظور: "الوَعْيُ: حِفْظ القلبِ الشيءَ... وعَى الشيءَ والحديثَ يعيه وعيًا وأوعاه: حفظه وفهمه وقبله، فهو واعٍ" (ابن منظور، 1414هـ: 396/15). ويؤكد الزبيدي (2001م: 212/40). المعنى ذاته بقوله: "وعى الشيءَ يعيه وعيًا: حفظه وفقهه وتدبّره". ويضيف ابن عباد (1994م: 185/2) أن الوعي يدل على التماسك والتمايز، فيقول: "الوَعْيُ: حِفْظُ الشيء... وما له

عنه وعيٌ: أي لا بد له منه وتمسك به". أما في المعاجم الحديثة، فنقرأ تعريفًا أكثر اقترابًا من المجال النفسي، حيث جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: "الوعي: شعور الكائن الحي بما في نفسه وما يحيط به" (مختار، 2008م: 2469/3).

ب- الوعي في الاصطلاح:

تعددت التعريفات الاصطلاحية للوعي تبعًا للسياقات المعرفية والنفسية والاجتماعية التي يُتناول فيها، إذ لا يقتصر على مجرد الإدراك البسيط، بل يتجاوز ذلك ليصبح قدرة نقدية تُوجِّه السلوك الإنساني وتحدد معالم التفاعل مع العالم. فقد عرّفه الدكتور عبد الكريم بكّار بأنه: "إدراك الفرد لذاته وللبيئة المحيطة به إدراكًا نقديًا فاعلًا يُمكّنه من التفاعل الإيجابي معها، وتوجيه سلوكه على ضوء هذا الإدراك" (بكّار، 2025م). ويتضح من هذا التعريف أن الوعي ليس عملية سلبية أو انعكاسية، بل هو فعل إدراكي واعٍ ينطوي على قيم ومعايير، ويشكّل قاعدة لأي تحول حضاري أو فكري.

ثانيًا: مفهوم البناء الحضاري (تركيبًا ومصطلحًا):

أ- من الناحية اللغوية:

يتكوّن "البناء الحضاري" من كلمتين: البناء: وهو في اللغة من الفعل "بنى"، ويعني التشييد والتأسيس المنظم بقصد الاستمرار والديمومة. يقول ابن منظور (1414هـ: 95/14) "البِناءُ: إقامة الشيء على أساس يُشيَّد به". أما الحضارة: وهي مناقضة للبداوة، وتعني الانتقال من الفطرة الأولية إلى التهذيب والنظام الاجتماعي. يقول الزبيدي (2001م: 39/11). "الحضارة خلاف البداوة، وهي الانتقال من الفطرة الأولى إلى التهذيب والنظام".

ب- من الناحية الاصطلاحية:

يُستخدم مصطلح "البناء الحضاري" في الخطاب الإسلامي المعاصر للإشارة إلى: الجهد المنهجي المتكامل الذي تبذله الأمة لتشييد بنية حضارية متكاملة تجمع بين التقدم المادي والسمو القيمي، ضمن مشروع نهضوي طويل الأمد يستند إلى مرجعية أخلاقية وثقافية (الجيلاني، 2010م: 34-35).

ويُدعّم هذا الفهم عددٌ من المفكرين، فيقول عبد الكريم بكّار (2021م: 11) "الحضارة هي الطور الناتج عن الجهد الذي بذله الإنسان للخلاص من الألم والضيق، والحصول على الراحة والرفاهية بأقل جهد عضلي ممكن". ويرى مالك بن نبي (2016م: 55) بأن الحضارة ما هي إلا نتيجة تفاعل بين الإنسان والتراب والزمن في ظل فكرة توجه هذا التفاعل. بينما يقر طه عبد الرحمن (2006م: 25-26) بأن البناء الحضاري يبدأ من تجاوز حالة القصور إلى حالة الاستقلال والإبداع.

في حين أن إبراهيم الحجي (2016م: 91) ينظر إلى عملية البناء الحضاري من خلال تفعيل القدرات البشرية لتحقيق الكفاية والرفاه مع المحافظة على منظومة القيم. أما محمد عمارة (2003م: 151) فقد جعل الحضارة مرة التفاعل بين الإنسان والبيئة والتاريخ وفق مرجعية قيمية.

انطلاقًا من مجموع التعريفات السابقة، يمكن أن نُعرّف "البناء الحضاري" بأنه: "عملية تراكمية واعية، تستهدف تشييد بنية فكرية ومادية وقيمية متكاملة، تنهض بالأمة في ضوء وعيها الذاتي والتاريخي، وتستند إلى مرجعية معرفية وروحية تسعى لتحقيق الاستخلاف الإنساني في الأرض".

ثالثًا: المحورية:

1. الأصل اللغوي:

كلمة "المحورية" مأخوذة من الجذر الثلاثي (ح–و–ر)، ومنه: المِحْوَر: هو الشيء الذي يدور حوله غيره، أي القطب أو المركز أو الأساس الذي تنتظم حوله الأشياء (الزبيدي، 2001: 324/39) و(الأخفش، 1999م: 383).

2. المعنى الاصطلاحي:

تُستخدم "المحورية" كمصطلح للدلالة على الموقع المركزي أو الجوهر الأساسي الذي يدور حوله موضوع ما أو بناء ما، سواء كان ماديًا أو فكريًا أو تنظيميًا (النحلاوي، 2007م: 158). وبالتالي، فالمحورية تعني المركزية والجوهرية، أو العنصر الذي يُبنى عليه الشيء وتتحدد ملامحه من خلاله.

رابعًا: شرح عنوان البحث: محورية الوعي في البناء الحضاري من منظور القرآن الكريم:

ينطلق العنوان من فرضية أساسية مؤداها أن الوعي، في الرؤية القرآنية، لا يُعدّ مجرد وظيفة معرفية أو ذهنية، بل هو ركيزة حضارية لا يمكن أن تُبنى الأمة أو تنهض الحضارات من دونها.

إنّ محورية الوعي تعني أن الإنسان الواعي – في التصور القرآني – هو الفاعل الأصيل في البناء، لا بمجرد وجوده الفيزيائي، بل بقدرته على الفهم، والتقييم، والعمل وفق مرجعية قيمية راشدة.

"محورية الوعي في البناء الحضاري من منظور القرآن الكريم" تعني باختصار: أن القرآن الكريم يضع "الوعي" في مركز المشروع الحضاري، باعتباره الأداة التي بها يتشكل الإنسان القادر على عمارة الأرض وتحقيق الاستخلاف، في انسجام بين الروح والعقل، وبين القيم والمؤسسات.

المبحث الأول: مفهوم الوعي وقيمته في القرآن الكريم:

المطلب الأول: مفهوم الوعي في القرآن الكريم:

أولًا: مادة ومشتقات "الوعي":

يمثّل الوعي في القرآن الكريم حالة من الإدراك الحيّ المتفاعل، يتجاوز الحفظ السلبي أو الفهم السطحي إلى الاستيعاب البصير والتقدير المسؤول. ويعبّر عن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12]. وقد فسّرها عدد من المفسرين بقولهم إن الأذن الواعية هي التي تحفظ، وتفهم، وتُدرك ما يُلقى إليها من الحق، فهي ليست أداة نقلٍ صوتيٍ مجردة، بل منفذ الوعي ومجراه.

ويؤكد السعدي (2000م: 882). أن المعنى يشمل "أولي الألباب الذين يعقلونها ويفهمون مقصدها، بخلاف أهل الغفلة والبلادة". أما الماتريدي (2005م: 172/1–173) فقد شرح النسبة البلاغية بين الأذن والوعي، فقال: "نُسب الوعي إلى الأذن، والأذن لا تعي، بل تسمع، ثم يعيه القلب... لكن لما كانت الأذن هي الوسيلة إلى الوعي، نُسب إليها".

وقال الصابوني (1981م: 542/2). "أُذن سمعت ووعت، أي أذن لمن له سمع صحيح وعقل راجح" وعبّر الثعالبي (1418هـ: 474/5) عن نفس المعنى بقوله: "هو الرجل الفَهِم المُنَوَّر القلب الذي يسمع القرآن فيتلقاه بفهم وتدبّر".

ويتّضح من هذا أن "الوعي" ليس حصرًا على فعل السمع، بل هو تفاعل مركب يشمل: الاستقبال، والتفكر، والفهم، والتمييز، والتفاعل.

ثانيًا: تجليات الوعي في المفاهيم القرآنية:

لم يقتصر القرآن الكريم على استعمال مادة (وعي) في التعبير عن المفهوم، بل نسج من حوله شبكة دلالية معجميّة متماسكة، تعبّر عن بنية الوعي في مستوياته المختلفة: الإدراكي، الشعوري، القيمي، الحضاري.

وفيما يلي أهم المفاهيم التي تُجسّد هذا المعنى في القرآن الكريم:

1. العقل: وهو أهم أدوات الوعي وأكثرها تكرارًا في القرآن. جاء قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]. يقول السعدي (2000م: 519): "فلو كان لكم عقل لسلكتم سبيل الحق، ولما سلكتم غيره مما يفضي إلى الضعة والخسّة، فلما لم تفعلوا دلّ على أنكم بلا عقل سليم ولا رأي راجح".

2. التفكر: هو الذي يدل على إعمال الفكر وتأمل المعاني وتجاوز الظاهر إلى الباطن. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219]. وجاء في تفسير ابن كمال باشا: "التفكر إعمال الفكر للوصول إلى الغاية" (عبدالله، 2017م: 434/4). وفي آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 50]. قال السعدي (2000م: 257): "فتنزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى بالإيثار".

3. التدبر: وهو التأمل العميق في الخطاب الإلهي، وليس مجرد القراءة الظاهرية، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]. قال المظهري (المظهري، 1412هـ: 435/8): "أي لا يتصفحونه وما فيه من المواعظ فيتضح لهم الحق".

4. البصيرة: وهي نافذة الإدراك العميق التي تُمكّن الإنسان من رؤية الحق. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. قال البغوي (1997م: 284/4): "البصيرة هي المعرفة التي تميّز بها بين الحق والباطل".

5. الاعتبار: وهو الذي يُحيل إلى توظيف الوعي في قراءة التاريخ والسنن. قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2]. قال القيرواني (2008م: 7382/11): "اتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحل الله بهؤلاء اليهود". قال ابن العثيمين (1425هـ – 2004م: 144): "صاحب العقل هو الذي يتعظ أما من لا عقل له، فإنه لا ينتفع بذلك".

6. التذكر: وهو استدعاء الحقائق المنسية وإحياء الفطرة. قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]. قال الزمخشري (1987م: 391/4): "لمن كان له قلب، أي قلب واعٍ... وإلقاء السمع: الإصغاء، وهو شهيد: أي حاضر بفطنته".

7. الفقه: وهو الفهم العميق لحقائق الخطاب الإلهي، لا السطحي. قال تعالى: ﴿فَمَا لِهَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78]. قال الشعراوي (د.ت: 2455/4): "الفقه هو الفهم العميق، والفهم إذا غاب، دلّ على أن العقل قد عُزل عن مهمته".

8. الشعور: وهو أدنى مراتب الوعي وأوله، ومن فقده دخل الغفلة. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: 12]. وقد علّق الشيخ محمد سيد طنطاوي (1997 – 1998 م: 59/1) على هذه الآية بقوله: "ومن أسوأ ألوان الجهل أن يكون الإنسان مفسدا ولا يشعر بذلك، مع أن أثر فساده ظاهر في العيان، مرئي لكل ذي حس". ويؤكد الدكتور وهبة الزحيلي (1422هـ: 603/1): "المعنى نفسه بقوله "فإن البهائم تعلم علوم الحس، وأما الضالون فهم مغرقون في الجهل لا يدركون الحقيقة، وكأن الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حس". وقال الكواكبي (2013م: 174): (في

موضع كيفية التخلص من الاستبداد) "الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية".

9. اليقين: وهو ذروة الوعي الإيماني، وثمرته المعرفية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: 51]. وقد عرّفه الراغب الأصفهاني (1420هـ – 1999م: 84/1) بقوله: "واليقين أقوى إدراكات العقل". كما يقرر السعدي (1420هـ –2000 م: 884) المعنى ذاته بقوله: "فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول".

من خلال هذه المفاهيم مجتمعة، يظهر أن الوعي في القرآن الكريم ليس مجرد حالة ذهنية طارئة، بل هو بنية حضارية متكاملة تشمل الإدراك، والإحساس، والتفكر، والتفاعل، والتزكية، والتوجيه، وهو في جوهره أداة بناء الإنسان والمجتمع والحضارة. غير أن الغرض من هذا البحث لا يستدعي التوسّع في تحليل كل مفهوم على حدة، بل يكفي الإشارة إليها بوصفها مكونات الوعي القرآني.

المطلب الثاني: قيمة الوعي في القرآن الكريم:

يمثّل الوعي في القرآن الكريم قيمة مركزية تتجاوز كونه مجرد أداة عقلية لفهم النصوص، ليغدو قوة بنائية شاملة في حياة الإنسان، وأداة للتغيير الاجتماعي والحضاري، ومقومًا جوهريًا في مشروع الاستخلاف. وتتجلّى هذه القيمة من خلال الأبعاد المتعددة التي يُعالج فيها الوعي في النص القرآني، والتي يمكن تصنيفها إلى خمس أبعاد رئيسة:

أولًا: البعد الإدراكي المعرفي:

يحتل الوعي في القرآن الكريم موقعًا محوريًا في البناء المعرفي للإنسان، إذ لا يُعدّ حالة عارضة أو مؤقتة، بل هو ملكة إدراكية تمكّن الإنسان من فهم الواقع والتفاعل الواعي مع الحقائق الكونية والوجودية، بما في ذلك الوقائع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المحيطة به. يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78).

قال المظفر الرازي (2009م: 198): "لا شك بأن الله تعالى عدَّد هذه النعم في هذه الآية للامتنان، وأن له على عباده المنة بإعطاء هذه النعم" ويضيف الشعراوي (د.ت: 6422/10): "فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة، هي المعلومات وتمحيصها، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها. ونحن نعلم أن الطفرات الحضارية وارتقاء العلم، إنما يأتي بمن سمع ومن رأى، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية".

ثانيًا: البعد القيمي – التمييز بين المقبول والمرفوض اجتماعيًا وفق القيم الفطرية والشرعية :

لا يقف الوعي في القرآن الكريم عند حدّ إدراك الواقع، بل يتجاوزه إلى امتلاك القدرة على التقييم الأخلاقي. إذ يُزوِّد الإنسان بإمكانية تمييز الحسن من القبيح، وتحسين الحسن وتقبيح القبيح، بالاعتماد على البنية الفطرية التي أودعها الله فيه، والتي تنير بهداية الوحي.

وهذا المعنى يقود إلى التمييز الجوهري بين الإنسان وسائر الكائنات الحية؛ إذ يمتاز الإنسان بقدرته على التفكير والتقييم والاختيار الواعي، وهي قدرات تنبثق من العقل باعتباره الأداة المركزية للوعي. ولهذا يقول الخراز: "العقل؛ هو الذي يحبس نفسه ويرُدُّها عن هواها، وسُمي العقل عقلًا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه. وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان" (الخراز، 2009م: 8).

ويؤكد البيضاوي (1418هـ: 77/1) هذا المعنى اللغوي–الفلسفي للعقل حين يربطه بالوعي الأخلاقي، فيقول: "والعقل في الأصل الحبس، سُمّي به الإدراك الإنساني لأنه يحبسه عما يقبح، ويعقله على ما يحسن، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك".

ومن زاوية أعمق، يرى الإمام الغزالي (د.ت: 1/ 86) أن الوعي الحقيقي لا يكتمل إلا بقدرة الإنسان على إدراك عواقب أفعاله وكبح جماح شهواته، بحيث يكون إقدامه وإحجامه منضبطًا بمقتضى العقل لا بمقتضى اللذة الفورية، وهو بذلك يضع معيارًا أخلاقيًا ومعرفيًا للوعي. يقول: "أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان.

ثالثًا: البعد النقدي – القدرة على التحليل وتجاوز التلقي السلبي:

يمثل الوعي في الرؤية القرآنية أداة للتحرر من التلقين والانقياد للموروثات غير الممحصة، ويدعو إلى تجاوز التقليد الأعمى وممارسة النقد الواعي للمعطيات الثقافية والاجتماعية. قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. والرضا (1990م: 207/11): "ذمّهم من ناحيتين: (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقّي في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الإنسان الحيّ العاقل، فإن الحياة تقتضي النمو والتوليد، والعقل يطلب المزيد والتجديد. (والثانية) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزيّة البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم، وطريق الاهتداء في العمل".

فالوعي النقدي يُعدّ شرطًا من شروط الاستخلاف، ومقومًا من مقومات تحرير الإنسان من أغلال الاستسلام الاجتماعي والتقليد المقيَّد.

رابعًا: البعد السلوكي – تجسيد الوعي في الممارسة والمشاركة المجتمعية:

الوعي في القرآن الكريم لا يُفهم إلا إذا تُرجم إلى سلوك عملي، وتزكية للنفس، وممارسة أخلاقية مسؤولة تُسهم في البناء الذاتي والاجتماعي. يقول تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّفّ: 3]. قال الطبري (د.ت: 350/23): "لم تقولون القول الذي لا تصدقونه بالعمل، فأعمالكم مخالفة أقوالكم". ويقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البَقَرَة: 44–45]. وقال الشيخ طنطاوي (1998م: 11/1) في معنى هذه الآية: "كيف يليق بكم يا معشر اليهود، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل، وألوان الخيرات، أن تنسوا أنفسكم".

فالنجاح في المشروع القرآني مرهون بوعي الإنسان بذاته، ومحاسبتها، وتطهيرها من دوافع الشر والانحراف، ليُنتج سلوكًا مسؤولًا يتجلّى في المواقف الأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي تحقق الصلاح العام.

خامسًا: البعد الانتمائي – الوعي بالهوية والانتماء الثقافي والديني:

يرتبط الوعي في القرآن الكريم بالهوية والانتماء الجمعي، وهو ما يجعله مقاومة للذوبان، ورفضًا للتبعية الحضارية، وتجديدًا دائمًا للانتماء لأمة ذات رسالة. لا يكتمل وعي الإنسان بذاته ما لم يكتمل بوعيه بانتمائه لأمة الشهادة والخير. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: 110]. فمن مقتضيات الوعي الحضاري أن يدرك الإنسان رسالته في الانتماء إلى منظومة قيمية متكاملة، تقوم على العدل، والرحمة، والحرية، والشهادة على الناس، لا على الذوبان في الآخر، أو الانكفاء على الذات.

الخلاصة:

إن الوعي في القرآن الكريم ليس قيمة فرعية أو عرضية، بل هو لبُّ الرسالة، وجوهر التكليف الإنساني، وركيزة مشروع الاستخلاف. وهو في حقيقته وعي إدراكي، قيمي، نقدي، سلوكي، وانتمائي، يُربّي الإنسان ليكون كائنًا حرًا، نبيها، بصيرًا، مشاركًا في مشروع النهضة والبناء الحضاري للأمة.

المبحث الثاني: أخطاء وآليات البناء الحضاري في القرآن الكريم:

إن عملية البناء الحضاري مسعى إنساني ضخم يهدف إلى الارتقاء بالمجتمعات وتوفير سبل العيش الكريم، غير أن التاريخ الإنساني – كما يقدمه القرآن الكريم – مليء بسير أممٍ قامت حضاراتها ثم اندثرت. هذا التباين في المصير ليس محض صدفة، بل هو نتيجة لسنن إلهية تحكم صعود الحضارات وهبوطها. فلا يمكن للوعي أن يؤدي وظيفته الحضارية ما لم يُطهّر من مفاسده أولًا.

ومن ثم، فإن أي مشروع حضاري – مهما اتسعت خططه، وتنوعت وسائله – لا يُكتب له النجاح ما لم يُقم على أسس معرفية ونفسية ومنهجية خالية من العيوب الحضارية. إذ إن أي خلل في بنية الوعي سيؤدي إلى إهدار الجهد وضياع الوقت، كما وصف القرآن الكريم حال الأعمال التي تُبنى على غير تقوى بقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: 264]. قال أبو بكر الجزائري (2013م: 257/1): "أي: نزل عليه مطر شديد فأزال التراب عنه فتركه أملس عاريًا ليس عليه شيء، فكذلك تذهب الصدقات الباطلة ولم يبق منها لصاحبها شيء ينتفع به".

ويقول الصابوني (1981م: 294/2): "أي سَعْيُهُمْ وَعَمَلُهُمْ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ وَلَا اسْتِقَامَةٍ، حَتَّى فَقَدُوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه".

وقد وصف القرآن الكريم مرة أخرى حال من يبني على غير أساس بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18]. قال الصابوني (1981م: 294/2): "أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئًا إلا كما يُتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة".

وانطلاقًا من هذه الدلالات القرآنية يمكن القول إن:

1- الحماية قبل العلاج: أي أن صيانة البنية الحضارية من الانهيار مقدمة على محاولة ترميمها بعد السقوط، كما روي عن الحارث بن كلدة طبيب العرب قوله: «الحمية رأس الدواء» (البغدادي، 1424هـ – 2004م: 1239/3).

2- درء المفاسد مقدم على جلب المصالح: وهو أصل كلي من أصول الشريعة الإسلامية، يقرره الإمام الشاطبي بقوله: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» (الشاطبي، 1417هـ – 1997م: 465/3).

3- تجنّب الأخطاء الحضارية أساس لأي بناء: فكما أن درء الدخان والروائح الكريهة أولى من نشر الروائح الطيبة، فإن وقاية المشروع الحضاري من الأخطاء أولى من التوسع في إنجازاته الشكلية.

وبذلك يتضح أن القرآن الكريم لا يكتفي بتحديد آليات البناء الحضاري، بل يرسم منهجًا وقائيًا يمنع الانزلاق إلى المزالق التي أوقعت الأمم السابقة في الفشل والاندثار.

المطلب الأول: المفاسد السلوكية:

يُبرز القرآن الكريم جملة من المفاسد السلوكية التي تُعدّ معاول هدم لأي مشروع حضاري، فهي تنشأ من داخل الإنسان والمجتمع، وتؤدي إلى فقدان المناعة الداخلية للحضارة. ومن أبرز هذه المفاسد:

1.الظلم والفساد بجميع أشكاله: العدل أساس قيام الحضارات، والظلم معول هدمها. يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: 59].

قال الشنقيطي (1415هـ – 1995م: 318/3): معقبا على هذه الآية "بين في هذه الآية الكريمة: أن القرى الماضية لما ظلمت بتكذيب الرسل والعناد واللجاج في الكفر والمعاصي أهلكهم الله بذنوبهم. وهذا الإجمال في تعيين هذه القرى وأسباب". ويتضح من ذلك أن الظلم والفساد لا ينشآن في فراغ، بل هما انعكاس مباشر لغياب الوعي الجمعي. وقد عُرفت هذه الحقيقة في الأدبيات الفلسفية القديمة التي أكدت أن الظلم سبب الهلاك وخراب العمران البشري (ابن تيمية، 1403هـ – 1983م: 24٧/2).

ثم جاء ابن خلدون ليؤصّل ذلك بقوله: "الظلم مؤذن بخراب العمران" (2004م: 259). غير أن الكواكبي طوّر هذه الفكرة، فرأى أن مجرد وجود الظلم لا يؤدي بالضرورة إلى انهيار السلطة الظالمة ما لم يواكبه وعي جمعي بالأضرار المترتبة عليه، إذ يقول: "الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية" (الكواكبي، 2013: 143). وهذا يعني أن الوعي الجمعي هو الرادع الحقيقي للظلم، وهو الشرط الأساس لبقاء الحضارات واستمرارها. ويقول في سياق آخر "المستبد: يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم، كما يقال: الاستعداد للحرب يمنع الحرب" (الكواكبي، 2013: 21). وشدد في نفس السياق على أن الرعية العاقلة هي التي تقيد يد المستبد وتمنعه من الانفلات حفاظًا على توازن السلطة والمجتمع، حيث يقول "المستبد: يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة، وكالكلاب تذللا وتملقا، وعلى الرعية أن تكون كالخيل إن خدمت خدمت، وإن ضربت شرست، وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله، خلافا للكلاب التي لا فرق عندها أطعمت أو حرمت حتى من العظام. نعم؛ على الرعية أن تعرف مقامها: هل خلقت خادمة لحاكمها، تطيعه إن عدل أو جار، وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف؟ أم هي جاءت به ليخدمها لا يستخدمها؟ والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزت به الزمام وإن صال ربطته" (الكواكبي، 2013: 22).

إن الوعي يشكّل الضمانة الحقيقية لدرء الظلم ومنع تمدده، إذ إن الشعب الواعي لا يُظلَم لأنه يدرك حقوقه ويُحسن مراقبة السلطة، والقيادة الواعية لا تَظلِم لأنها تستبطن قيمة العدل وتعي أن الظلم مؤذن بخراب العمران. ومن ثمّ فإن الوعي – بشقيه الجمعي والقيادي – يمثل الشرط الأساس لاستمرار العمران واستقرار الحضارات، وهو ما أكده القرآن الكريم وقرره ابن تيمية وابن خلدون، وعمّقه الكواكبي بإبراز دور الأمة في ردع الاستبداد وصيانة الحرية.

2. التفرد بالمجد والاستبداد بالرأي: قال تعالى في وصف فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 23–24]. قال الهرري (2001م: 195/21): "إنه لا يدّعي الخلق، بل ينفي الربوبية كمصدر للطاعة، ويجعل نفسه المرجع الوحيد".

ويقول الرازي (1420هـ: 599/24): "ادعاؤه الألوهية ليس من باب خلق الكون، بل من باب فرض الطاعة المطلقة على الناس".

وقال تعالى في بيان المنهج القرآني المقابل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

ويؤكد الكواكبي (2013م: 9): "الاستبداد يقتل العقل ويشلّ الوعي، أما الشورى فهي أصل الحضارة والحرية والعدالة.

وهذا يؤكد أن مقاومة التفرد بالمجد لا تتم إلا بترسيخ الوعي الجمعي الذي يُمكّن الأمة من رفض الاستبداد والتمسك بمبدأ المشاركة والشورى، باعتباره شرطًا أساسًا للبناء الحضاري.

3. الترف والإسراف والبطر: يؤدي الترف إلى فساد الأخلاق وانهيار الإرادة الحضارية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: 16]. يقول الزمخشري (1987م: 654/2): "صبّ عليهم النعمة فجعلوها ذريعة إلى المعاصي، وكأنهم مأمورون بها لتسبب إيلاء النعمة فيها".

ويؤكد ابن خلدون (2004م: 312–314): "الترف يؤدي إلى فساد الأخلاق وتفكك الطبقات، ويحول الدولة من الإنتاج إلى الاستهلاك".

وهنا يتجلى البعد الوعي–الحضاري، إذ إن الترف لا يصبح عامل هدم إلا حين يغيب الوعي بمقاصد النعمة، فيتحول من وسيلة للارتقاء العمراني إلى أداة للانغماس في الملذات وتآكل القيم. وبالتالي، فإن حضور الوعي الجمعي يشكل الحصانة الفكرية والسلوكية التي تمنع المجتمعات من السقوط في فخ الترف المدمر لمسيرتها الحضارية.

ويؤكد سلطان في التصورات الكبرى أن معيار فحص أي نظام اجتماعي أو سياسي إنما يتوقف على قدرته في "توفير الحاجات الأساسية للإنسان وضمان حدّ من الرفاه يمكّن المجتمع من الاستقرار والاستمرار" (سلطان، 6–٧). وهذا المعيار يفتح لنا أفقًا مهمًّا في فهم أعطاب الأنظمة

حينما تنغمس قياداتها في النعم والترف، فتتحول السلطة إلى أداة استهلاك للثروة لا إلى وسيلة لبناء الحضارة. فالإفراط في الترف يمثل عائقًا بنيويًا أمام أي مشروع حضاري، إذ يبدد الموارد ويضعف الإرادة، في حين يغيب الوعي الجمعي عن القيام بدوره في المطالبة بتصحيح المسار، الأمر الذي يفتح الباب واسعًا أمام مظاهر الانحدار الاجتماعي والسياسي.

4. التنازع والفرقة:

تمثل الوحدة والاعتصام بحبل الله ركنًا أساسيًا في بقاء المجتمعات وصيانة الحضارات، بينما يشكّل التنازع والفرقة نقيضًا للوعي الجمعي وسببًا رئيسًا للضعف والفشل. فقد قرر القرآن الكريم أن التنازع يؤدي إلى ذهاب الريح وفقدان القوة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46]، وأكد الخطيب (1383هـ/1964م: 2016/1): أن ذلك يعني تراجع الدولة وزوال سلطانها. كما بين البراك (1444هـ/2023م: 24–25): أن الاعتصام بحبل الله واتباع الهدى سبيلان متلازمان للنجاة من الضلال والشقاء، وهو ما أوضحته آية آل عمران: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]. ويذهب ابن خلدون (2004م: 155) إلى أن العصبية والوحدة الاجتماعية هما الأساس في قيام الدول، وأي خلل فيهما يؤدي إلى السقوط. ومن ثمّ فإن الفرقة قرين الضلال، وهي النقيض المباشر للوعي، فلا يمكن أن يجتمعا في مجتمع واحد.

المطلب الثاني: الأخطاء التكتيكية في البناء الحضاري:

إن مشاريع النهضة الحضارية لا تتعثر غالبًا بسبب المفاسد السلوكية وحدها، بل كثيرًا ما تفشل بسبب الأخطاء التكتيكية التي تُرتكب في إدارة العملية الحضارية. وهذه الأخطاء ليست بالضرورة انحرافات أخلاقية، لكنها عثرات منهجية تُفضي إلى ضياع الجهود وإعاقة السيرورة الحضارية. ومن خلال النظر في القرآن الكريم وسنن التاريخ يمكن تقسيم هذه الأخطاء إلى فرعين رئيسيين:

الفرع الأول: الأخطاء الفنية من قبل السلطة المديرة:

ويقصد بها الأخطاء التي تقع من النخبة القيادية أو السلطة المسؤولة عن إدارة المشروع الحضاري، ومن أبرزها:

أولا :عدم توظيف الشخص المناسب في المكان المناسب:

يؤكد القرآن الكريم على معيارين أساسيين في تولية المسؤوليات هما: القوة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

قال الطبري (1422هـ – 2001م: 228/18) معقبًا على هذه الآية: "القوي في الصنعة، الأمين فيما وُلِّي". وقال الكواري (2008م: 26/28): "وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها، فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما، أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما؛ فإن العمل يتم ويكمل".

ويتضح مما سبق أن من أهم السنن القرآنية أن عملية البناء مهمة النخبة المبدعة وليس مهمة العامة من الناس. وهذا ما يكشفه القرآن الكريم بوضوح من خلال النصوص الصريحة التي تحدد المسؤولية الأساسية عن البناء في فئة محددة من المجتمع، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116].

قال السدلان (1417هـ – 1997م: 253): "وفي القرآن الكريم تكررت آيات كثيرة تنص على أن الرأي لأهل الفضل والعلم؛ ليس لأكثر الناس على التعميم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116]. فإذا كانت طاعة الكثرة الجاهلة تضل عن سبيل الله، فليس من الصواب أن تكون لهم المشورة، وإنما ترجع المشورة إلى أهل الرأي والحكمة". وقال الموصلي (د.ت: 95) في السياق ذاته: "واجتماع القوة والأمانة اليوم في الناس قليل، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم أشكو جلد الكافر وعجز الثقة".

وعليه، فإن إسناد الأمور إلى غير أهلها يُعَدّ خطأً تكتيكياً قاتلاً، لأن البناء الحضاري لا يقوم إلا على الكفاءات المؤهلة التي تجمع بين القوة والأمانة؛ فبغياب هذا الشرط ينهار التخطيط وتفشل المشاريع، ويصبح الفساد نتيجة حتمية.

ثانيًا: إهمال مبدأ التدرج في البناء الحضاري:

إن الحضارات لا تُبنى دفعة واحدة، وإنما عبر مراحل متدرجة، كما جسد ذلك القرآن الكريم في منهج التشريع. فقد قرر العلماء أن من أبرز أسس التشريع الإسلامي مبدأ التدرج، وهو ما أوضحه السبكي (1419هـ – 1999م: 184/1) بقوله: "ومن الأسس الجلية التي ابتنى عليها بناء الأحكام الإسلامية في تشريع الأوامر والنواهي – مبدأ التدرج؛ حتى تتهيأ النفوس للإذعان للأحكام الشرعية؛ فتتقبلها عن طيب خاطر بدون مشقة أو ضرر واقع بها". ثم أضاف: "ومشروعية التدرج في الأحكام الإسلامية اقتضتها الظروف والملابسات التي تزامنت والدعوة الإسلامية، فكان مبدأ التدرج علاجًا لمثل هذه الحالات، ثم تنتهي هذه الأحكام بالنسخ لزوال مقتضياتها، حتى إذا تمت أحكام الله نزولًا بقيت محكمة إلى يوم الدين" بل حتى في مقاومة الاستبداد السياسي قرر الكواكبي قاعدة مشابهة، إذ قال: "يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يُستبدل به الاستبداد" (الكواكبي، 2013: 143). لذلك

فإن تجاهل مبدأ التدرج في البناء الحضاري يؤدي غالبًا إلى انهيار الخطط بسبب الصدمات المفاجئة التي تعجز المجتمعات عن استيعابها أو التكيف معها.

ثالثا: فقد الترتيب:

من أبرز الأخطاء الحضارية التي تؤدي إلى ضعف العمران وانهيار البنى المجتمعية غياب مراعاة الأولويات في تدبير شؤون الدولة وإدارة مصالح الناس. إذ قد تنشغل السلطة أحيانًا بما هو ثانوي أو ترفيهي على حساب الضروري والحاجي، كما قد يضغط الشعب في مطالبه نحو قضايا جزئية أو استهلاكية، بينما يغفل عن الأساسيات الاستراتيجية كالعدل والأمن والتعليم. وقد نبّه الغزالي إلى خطورة هذا الخلل في الترتيب، فقال: "وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور" (الغزالي، د.ت: 65/1). قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النُّور: 39]. وهو تصوير بليغ يُبرز أن الجهد إذا لم يُرتّب على وعي بالغاية، فإنه يتحول إلى فراغ خادع لا ثمرة له، إذ شبه الأعمال التي بلا أساس إيماني أو غاية صحيحة، بالسراب الذي يخدع الظمآن. كما يبرز القرآن الكريم في تصويره البديع للحق والباطل، أن ما ينفع الناس هو الذي يبقى ويؤسس للحضارة، أما ما لا قيمة له فيذهب جفاءً كزبد السيل، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17]. وهذا المثل القرآني يُبرز أن فقدان الترتيب بين ما هو باقٍ نافع وما هو عابر زائل، خطأ حضاري قاتل، إذ يُشغل الأمة بالزبد ويصرفها عن جوهر البناء.

رابعًا: سوء الاستفادة من تجارب الآخرين:

إن الاقتصار على النقل الحرفي لتجارب الأمم دون إدراك آليات التقدم يؤدي إلى التقليد الأعمى وفقدان القدرة على الإبداع. وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية النظر في مصائر الأمم لا بغرض المحاكاة الشكلية، بل بغرض إدراك السنن الحضارية التي تحكم النهوض والانحدار، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: 137]. وقد أوضح الرازي (التفسير الكبير، 212/8) أن المقصود من هذا الأمر الإلهي هو أن "العبرة ليست في مجرد النظر إلى الحوادث الماضية، بل في إدراك القوانين والسنن التي أدت إلى نهوض تلك الأمم أو سقوطها".

فالكون – كما يقرر القرآن والعلوم الإنسانية – تحكمه سنن كونية واجتماعية، وقد بلغ بعضها حدًّا من البداهة والتواتر لا يحتاج إلى إعادة التجربة من جديد، فما كان إيجابيًا فهو إيجابي، وما كان سلبيًا فهو سلبي. غير أن المعادلة ليست بهذه البساطة، إذ إن ما كان إيجابيًا في زمنٍ ما قد لا يكون مناسبًا في زمن آخر، وما كان سلبيًا في بيئة قد لا يكون سلبيًا في بيئة أخرى، والعكس بالعكس.

ومن خلال ذلك يمكن تصنيف تعامل المجتمعات والسلطات مع تجارب الآخرين إلى ثلاثة أقسام:

1. الذين لا يستفيدون إطلاقًا: وهم الذين يكررون أخطاء الأمم السابقة دون اعتبار، كما أشار القرآن الكريم إلى حال الأمم التي خلت ولم يعتبر بها اللاحقون.
2. الذين يستفيدون جزئيًا لكن دون دقة: فيقعون في التقليد الانتقائي غير الواعي، فيأخذون القشور ويتركون الجوهر. وهذا ما نبّه إليه المفكر مالك بن نبي (1406هـ – 1986م: 101) في ميلاد مجتمع، إذ شبّه الحلول الاجتماعية المستوردة بالصيغ الكيميائية: فهي صحيحة في سياقها الأصلي لكنها غير قابلة للتطبيق بمجرد النقل، لأنها – كما يقول – تفتقد إلى "العناصر المكملة التي لا تنفصل عن المحيط الاجتماعي في بلادها، أي لا يمكن فصلها عن روحها.
3. الموفقون: وهم الذين يدركون سنن التاريخ إدراكًا عميقًا، فيأخذون من تجارب الآخرين ما يناسب واقعهم وزمانهم، ويتركون ما لا يصلح، فيوفقون بذلك إلى بناء حضاري متوازن.

الفرع الثاني: الأخطاء الفنية من قبل الشعب:

ويقصد بها الأخطاء التي تقع من القاعدة الاجتماعية أو الجماهير عند تفاعلها مع مشاريع النهضة، ومن أهمها:

أولاً: وعي الشعب بين الصمت والمراقبة:

من أبرز الأخطاء التكتيكية التي تقع فيها الشعوب في مسار البناء الحضاري هو الصمت عن مراقبة السلطة وتركها دون مساءلة. فالتجارب التاريخية والواقع السياسي يثبتان أن السلطة إذا تُركت بلا رقيب تحولت سريعًا إلى الاستبداد. وقد أشار الكواكبي (2013: 19) إلى هذه الحقيقة بقوله: "ومن الأمور المقررة طبيعة وتاريخًا أنه؛ ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمة أو التمكن من إغفالها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الوسيلتين العظيمتين: جهالة الأمة، والجنود المنظمة. وهما أكبر مصائب الأمم وأهم معائب الإنسانية".

ويؤكد في السياق نفسه أن السلطة – أيًا كان نوعها – لا تخرج عن وصف الاستبداد إلا إذا وُضعت تحت رقابة شديدة من الأمة، فيقول: "إن الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه، كما جرى في صدر الإسلام في ما نقم على عثمان، ثم على علي رضي الله عنهما، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس" (2013: 19).

ويتفق هذا التحليل مع القاعدة القرآنية التي تجعل الأمة مسؤولة عن مراقبة الحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104].

وهكذا فإن صمت الشعوب، وجهلها بمسؤولية الرقابة، يعد من أهم العوائق التكتيكية أمام النهضة الحضارية، لأنه يُنتج سلطات مطلقة لا تجد من يحاسبها، فيترسخ الاستبداد وتضيع فرص البناء الحضاري المتوازن.

ثانيًا: الخلل في وعي التوقيت والأسلوب في المطالبة بالحقوق:

إنّ حسن اختيار التوقيت والأسلوب في المطالبة بالحقوق شرط جوهري لنجاح أي حركة إصلاحية؛ فإذا أُهمل هذا الشرط ضاعت الجهود سُدى، بل قد تنقلب النتائج إلى عكس المقصود. وقد نبّه القرآن الكريم إلى خطورة الأسلوب الخاطئ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

وعقّب الطوفي (1426هـ، 200: 262) على هذه الآية بقوله: "يُحتج بها على سدّ الذرائع، وحسم مواد الفساد؛ إذ كان معنى الآية: لا تسبّوا آلهتهم فيجعلوا ذلك وسيلة وذريعة إلى سبّ إلهكم". فالآية تؤكد أن سوء الأسلوب ولو كان في بيان الحق قد يؤدي إلى نتائج سلبية، فيضرّ القضية بدل أن ينفعها.

كما أرشد القرآن إلى المنهجية الرشيدة في تبليغ الرسالة بقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وقد علّق الشعراوي (1997م: 9101/15) قائلاً: "النصح ثقيل فلا تُرسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، وقالوا: الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفَّة البيان". وهكذا وضعت الآية مبدأ التدرج الأسلوبي في إيصال الحق: الحكمة أولًا، ثم الموعظة الحسنة، ثم الجدال بالتي هي أحسن، وهو ترتيب يراعي البعد النفسي والاجتماعي للمتلقي. بل إن القرآن الكريم وهو يخاطب موسى وهارون عليهما السلام في مواجهة فرعون، رمز الطغيان والاستكبار. أمرهما بالملاطفة واللين فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44]. وعلّق ابن كثير (1420هـ/1999م: 294/5) على ذلك بقوله: "هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتوّ والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين".

ومن مجموع هذه النصوص يتضح أن الوعي بالتوقيت والأسلوب ليس مجرد مسألة شكلية، بل هو أساس في نجاح الإصلاح وضمان بقاء الحقوق، إذ يُحوّل الخطاب من مواجهة صدامية عقيمة إلى رسالة هادفة مؤثرة.

وعليه، فإن الوعي بالتوقيت والأسلوب هو مفتاح نجاح المطالبة بالحقوق؛ فبدونه تضيع الجهود، وبوجوده تتحقق الفاعلية ويُحفظ الاستقرار.

المبحث الثالث: آليات وإجراءات بناء الوعي الحضاري في ضوء القرآن الكريم:

إنَّ البناء الحضاري المتين لا يمكن أن يقوم إلا على قاعدة راسخة من الوعي العميق والشامل لدى الأفراد والمجتمعات. فالوعي هو القوة المحرّكة التي تدفع بالأمم نحو التقدّم والازدهار، وهو البوصلة التي تُوجّه مسار الحضارة وتحدّد وجهتها. من هذا المنطلق، نجد أنّ القرآن الكريم، بما يحمله من توجيهات إلهية سامية ورؤية كونية شاملة، قد أولى أهمية قصوى لتشكيل الوعي لدى الأفراد والجماعات، من خلال آليات وإجراءات منهجية متكاملة تهدف إلى بناء إنسانٍ واعٍ ومجتمعٍ حضاريٍّ رشيد.

ويتناول هذا المبحث أبرز هذه الآليات والإجراءات القرآنية، مع الاستدلال بالآيات الكريمة والشواهد الفكرية التي تدعم هذا التصور.

1. الأمر بالقراءة والمعرفة التأسيسية: يعدُّ الأمر الإلهي الأول: "اقرأ" حجر الأساس في مشروع الوعي القرآني، وهو ليس دعوة إلى التعلم بمعناه الأداتي الضيق، بل هو نداء كوني شامل نحو الانفتاح على جميع أشكال المعرفة: من قراءة النصوص، إلى قراءة الكون، إلى قراءة الذات. قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1–5] .يقول عبد الكريم يونس الخطيب (د.ت: 24/16). "القراءة هي السبيل إلى المعرفة والعلم، حتى وإن حالت الأمية دون قراءة الكتب، فإن كتاب الوجود مفتوح لمن نظر فيه بعين التأمل، فليكن الإنسان قارئًا على كل حال".

2. الدعوة إلى التفكر والتدبر: بعد تأسيس المعرفة بالقراءة، يأتي التفكر كخطوة لاحقة تُعمّق الإدراك، وتُفعّل الوعي، وتُنتج الفهم الحي. التفكر في القرآن ليس ترفًا ذهنيًا، بل واجب إيماني ومعرفي. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آلِ عِمۡرَانَ: 191] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّسَاءِ: 82]. وقد لفت مالك بن نبي إلى ذلك حين قال: "الحضارة تبدأ من عالم الأفكار"، وهو ما يوازي انتقال الإنسان في الرؤية القرآنية من "القراءة" إلى "التفكر" (مالك بن نبي، 1986: 83–89).

3. التذكير بقصص الأمم السابقة :

تُعدّ القصص القرآنية من أبرز الآليات التي اعتمدها القرآن الكريم في بناء الوعي الحضاري، فهي لا تُروى لمجرد السرد أو التسلية، بل للتربية الفكرية والاعتبار الوجودي. كما قال المحسن (د.ت:

110): "القصص القرآني ليس مسوقا لذاته، بل لأجل غايات وأهداف كثيرة يمكن إدراكها بالتفكير والتأمل في القصص؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأَعۡرَافِ: 176].

وهي تعبّر عن فلسفة تاريخية قرآنية تقوم على إدراك السنن الإلهية التي تحكم قيام الحضارات وسقوطها، وتُقدّم رؤية واقعية لما يجري في التاريخ من خلال مبدأ "العبرة"، و"السير في الأرض"، و"النظر في مصائر الأمم". قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: 111].

فهذه الآية توضح أن الغاية من القصص القرآني هي استخلاص العبر، وهو توجيه مباشر إلى تنمية الوعي التاريخي والاستفادة من سنن الله في المجتمعات، وأن تلك القصص ليست حكايات ماضوية، بل دروس مستقبلية (غلوش، 1424هـ – 2003م: 568).

كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الروم: 9]. تُشير هذه الآية إلى دعوة منهجية للتأمل في التاريخ المقارن، من خلال السير في الأرض والنظر في مصائر الأمم. إنها دعوة إلى دراسة معالم الحضارات السابقة؛ قوتها، عمرانها، انهيارها، وإدراك الأسباب الداخلية للزوال، وهو ما يرسخ مبدأ المنهج التجريبي في التاريخ. وقال أيضًا جل شأنه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ [الأنعام: 6]. وهذه دعوة إلى التأمل في مصير الأمم الهالكة، لاستخلاص القيم الحضارية والاجتماعية والأخلاقية، التي ترتبط بسنن الثواب والعقاب، وتكوين وعي جمعي مسؤول تجاه الحاضر والمستقبل.

5. إبراز قيمة العلم والمعرفة: العلم في القرآن الكريم ليس مجرد وسيلة لتحقيق منافع دنيوية، بل هو قيمة حضارية وروحية، تُعبّر عن رقي الإنسان في مراتب الوعي والإيمان. فالعلم يقترن بالإيمان، ويُعدّ من أدوات التزكية والتنوير العقلي والبصيرة الفكرية، ويُشكّل قاعدة أساسية في بناء الحضارة الإسلامية. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]. وقال أيضًا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

تُؤكد هاتان الآيتان أن العلم معيار للتفاضل بين الناس، وهو الوسيلة التي يرفع الله بها درجات عباده، في الدنيا والآخرة، لما له من أثر في ترسيخ الإيمان، وتحقيق الفهم العميق للشرع والكون. وقد أشار إسحاق بن عبد الله السعدي إلى دور العلم والوعي الثقافي في تميز الأمة، حيث قال: "إن الوعي الثقافي الشامل – بشقيه: الوعي بالثقافة الإسلامية ومنهجها الرباني، والوعي بالثقافات الأخرى مقارنة بالثقافة الإسلامية – يعد من أنجع الوسائل لتحقيق تميُّز الأمة الإسلامية" (السعدي، 2013: 948/2).

6. التحذير من انحراف العقل الجمعي ودور النخبة الواعية: من أخطر ما يهدد الوعي الحضاري هو الذوبان في تيار العقل الجمعي غير المنضبط. فقد أشار الفيلسوف الاجتماعي جوستاف لوبون في كتابه سيكولوجية الجماهير (1991م: 32) إلى أن الفرد، حينما يندمج في الجماعة، قد يتخلى عن ملكاته العقلية والنقدية، مما يجعله عرضة للانفعال، والتصرفات غير الواعية، والانقياد وراء الأهواء الجماعية.

وهنا يبرز دور النخبة الواعية، التي تستطيع أن تصمد أمام انفعالات الجماهير، وتوجّه تفكيرهم نحو الرشد والحكمة. القرآن الكريم يؤكد على قيمة الوعي الفردي المستقل، ويحثّ على التفكر والانفراد بالعقل قبل الانخراط في أي جماعة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: 46]. فهذه الآية الكريمة توجّه إلى قيام فكري ووجداني لله، فرادى أو مثنى، يتبعه تفكر مستقل، بمعزل عن ضجيج الجماهير وتأثيرات السياق الجمعي. إنها دعوة إلى أن يبدأ الإصلاح والنهوض من وعي فردي متأمل، تتحمله النخبة الرسالية، من العلماء والدعاة والمصلحين.

7. التأكيد على المسؤولية الفردية والجماعية:لا يكتمل الوعي الحضاري دون إدراك الفرد لمسؤوليته الذاتية والاجتماعية، فالإنسان في التصور القرآني ليس كائنًا معزولًا، بل هو جزء من بنية اجتماعية متكاملة، يحمل في عنقه أمانة شخصية وجماعية، ويُسأل عن دوره في نهضة أمته. من هنا، يتشكل الوعي الحضاري على أساس من الفرد المسؤول، والجماعة الواعية. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]. وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]. وقد نبّه الجندي (1983: 32): إلى ضرورة ترسيخ هذا الوعي المجتمعي بقوله: "الوعي الاجتماعي في الأمة العربية لا يزال في طور التكوّن... والأدباء مطالبون بأن يغذّوا هذا الوعي إلى أن يكتمل".

8. التحذير من اتباع الهوى والظن: لا يقوم الوعي المنهجي على الأهواء والانفعالات، بل يستند إلى البينة والبرهان، وهو ما يُشكّل أساسًا للتمييز بين الرأي والهوى، وبين الظن واليقين. يحذّر القرآن من الانجرار وراء الظنون، لما فيها من تزييف للحقائق، وانهيار للمقاييس العقلية والشرعية. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49]. وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: 36]. فالوعي القرآني وعي مبني على الحجة، ومدفوع بالبصيرة، ومتحرر من ضغط الميول النفسية والذهنيات المتحيزة.

9. تعزيز القيم الأخلاقية والإنسانية: إنّ القيم الأخلاقية هي جوهر الوعي الحضاري، وهي من أبرز المرتكزات التي يقوم عليها الخطاب القرآني. فبناء الحضارة في القرآن لا ينفصل عن تهذيب السلوك،

وتزكية النفس، وترسيخ العدالة، والتسامح، والكرامة الإنسانية. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]. وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 85]. فكل هذه القيم تُعدّ إجراءات عملية لبناء إنسان حضاري، يعي حقوقه وواجباته، ويشارك في بناء مجتمع متوازن يقوم على الإنصاف والتزكية.

يتبيّن مما سبق أن القرآن الكريم يقدّم نموذجًا حضاريًا متكاملًا لبناء الوعي، من خلال سلسلة متماسكة من الآليات التربوية والروحية والعقلية. تبدأ هذه الآليات بالقراءة والتدبر والتفكر، وتمر عبر الاستفادة من التاريخ الإنساني، والتحذير من الأهواء والظنون، وتنمية المسؤولية الفردية والجماعية، وترسيخ العلم والقيم الأخلاقية، وصولًا إلى بناء إنسان صالح ومجتمع رشيد.

إنّ تطبيق هذه الآليات القرآنية هو المدخل الحقيقي لإحياء الوعي الحضاري، وتحقيق نهضة إسلامية شاملة ومتماسكة تقوم على البصيرة، والمعرفة، والإصلاح الشامل.

الخاتمة:

يتضح من هذا البحث أن "الوعي" يشكل في المنظور القرآني جوهر المشروع الحضاري الإنساني، إذ لا يمكن تصور نهوض حضاري أو إصلاح اجتماعي دون تأسيس وعي راشد، متكامل الأبعاد، عميق الفهم، وناقد للموروث والمألوف. فالقرآن الكريم لا يخاطب العقل البشري بوصفه مجرد أداة للمعرفة، بل يعدّه قوة موجهة للسلوك، ومحرّكًا للتغيير، وضمانة لاستدامة العمران الإنساني.

لقد أثبتت الدراسة أن "الوعي القرآني" ليس وعيًا معرفيًا محضًا، بل هو وعي إدراكي، قيمي، نقدي، سلوكي، وانتمائي، يتكامل في شخص الإنسان ليصنع منه فاعلاً حضاريًا متميزًا، قادرًا على التمييز بين الحق والباطل، والنفع والضر، والتقدم والانحطاط. وقد ظهر أن محورية الوعي لا تقتصر على التوجيه النظري، بل تشمل آليات عملية لبناء الفرد والمجتمع، كالأمر بالقراءة، والحث على التفكر، وربط الإنسان بالسنن الكونية، وتحذيره من الانزلاقات الحضارية الكبرى كالشرك، والظلم، والاستبداد، والترف، والفرقة.

إن أبرز ما خلص إليه البحث، هو أن تحصين الوعي من الزيف والانحراف يشكل الخطوة التمهيدية في أي مشروع حضاري، وهو ما ينسجم مع قاعدة "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، التي لا تقتصر على الفقه العملي، بل تشمل هندسة الوعي الجمعي وبناء المجتمعات.

وعلى مستوى الاستدلال والتحليل، أظهر البحث أن القرآن الكريم استخدم شبكة دلالية غنية لتوصيل مفهوم الوعي، تتجلى في مفردات: التعقل، التفكر، التبصر، التدبر، البصيرة، التذكر، الفقه،

والشعور، مما يدل على أن بناء الوعي في الخطاب القرآني يتم وفق استراتيجية شمولية عميقة، تتوجه إلى العقل والقلب والضمير والفعل في آنٍ معًا.

كما بيّن البحث أن القرآن لم يكتف بتحديد معالم الوعي الراشد، بل قدّم نماذج تاريخية للأمم التي صعدت بالوعي وسقطت عند غيابه أو تزييفه، وهو ما يشكل دعوة قرآنية دائمة إلى التأمل في مصائر الأمم كأداة لتوجيه الحاضر واستشراف المستقبل.

ومن هنا، فإن الرسالة المركزية التي يطرحها هذا البحث تتمثل في: أن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تستأنف دورها الحضاري إلا إذا وضعت الوعي القرآني في صميم مشروعها التربوي والتنموي والسياسي، وواجهت تحدياتها الحضارية من خلال عقل ناقد، وبصيرة مبصرة، ونفس تزكو بالحق، وعمل يرتكز إلى القيم والمعرفة.

التوصيات:

1. إدراج مفاهيم "الوعي الحضاري" في المناهج التربوية والجامعية بوصفها منطلقًا لبناء الإنسان والمجتمع.
2. تعزيز الوعي النقدي في المجتمعات الإسلامية عبر الإعلام والخطاب الديني، وتحريره من الجمود والتقليد الأعمى.
3. العناية بالدراسات القرآنية التي تركز على الوظيفة العمرانية للإنسان، وربطها بعلم الاجتماع والنفس والتاريخ.
4. دعم مبادرات "تحصين الوعي" في المجتمعات، ولا سيما في مواجهة تزييف الوعي الذي تتعرض له الأجيال.
5. تأسيس مراكز فكرية تعنى بترجمة مضامين الوعي القرآني إلى سياسات تنموية وتربوية وإعلامية.

قائمة والمراجع والمصادر:

القرآن الكريم

1. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى. (د.ت). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

2. الأخفش الأصغر، علي بن سليمان بن الفضل. (1999). الاختيارين. تحقيق: فخر الدين قباوة، ط1. بيروت: دار الفكر المعاصر.

3. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (الراغب). (1999). تفسير الراغب الأصفهاني: الجزء الأول (المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة). تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني. طنطا: جامعة طنطا.

4. الأصبهاني، أبو نعيم. (1986). دلائل النبوة. تحقيق: محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، ط2، بيروت: دار النفائس.

5. الأمين، محمد. (2001). تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن. إشراف: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط1. بيروت: دار طوق النجاة.

6. الأمين الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. (1995). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

7. ابن عباد، إسماعيل بن عباد. (1994). المحيط في اللغة. تحقيق: محمد حسن آل ياسين. ط1. بيروت: عالم الكتب.

8. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (تقي الدين). (1983). الاستقامة. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط1. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

9. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2004). مقدمة ابن خلدون. تحقيق: علي عبد الواحد وافي. ط 5. القاهرة: دار نهضة مصر – لجنة البيان العربي.

10. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد. (2004). جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع.

11. ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1999). تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.

12. ابن منظور، محمد بن مكرم. (1994). لسان العرب. تحقيق: جماعة من اللغويين. ط 3. بيروت: دار صادر.

13. البراك، عبد الرحمن بن ناصر. (2023). توضيح المقصود من حائية ابن أبي داود. ط 2. الرياض: مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك.

14. بكّار، عبد الكريم. (2021). مدرسة الوعي الحضاري: الوجهة، الاهتمامات، الطروحات. ط 1. دمشق: دار القلم.

15. بكّار، عبد الكريم. (2025). الوعي الإصلاحي حول إعادة تشكيل الحياة العامة. ط 1. دمشق: دار القلم.

16. بن نبي، مالك. (2006). شروط النهضة. ط 14. دمشق: دار الفكر.

17. بوذكر، جيلالي. (2010). البناء الحضاري عند مالك بن نبي. الجزائر: دار المعرفة.

18. الجزائري، جابر بن موسى. (2003). أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (ومعه حاشية "نهر الخير"). ط 5. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.

19. الجندي، أحمد أنور سيد أحمد. (1983). المعارك الأدبية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

20. الحراز، خالد بن جمعة بن عثمان. (2009). موسوعة الأخلاق. ط 1. الكويت: مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع.

21. الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف. (1964). أوضح التفاسير. ط 6. القاهرة: المطبعة المصرية ومكتبتها.

22. رضا، محمد رشيد. (1990). تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

23. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. (1965–2001). تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

24. الزحيلي، وهبة بن مصطفى. (2002). التفسير الوسيط. دمشق: دار الفكر.

25. الزمخشري، محمود بن عمر. (1987). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: مصطفى حسين أحمد. ط 3. القاهرة: دار الريان – دار الكتاب العربي.

26. السعدي، إسحاق بن عبد الله. (2013). دراسات في تميّز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه. ط 1. الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

27. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (2000). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط 1. بيروت: مؤسسة الرسالة.

28. السدلان، صالح بن غانم. (1997). وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل عصر. ط 1. الرياض: دار بلنسية للنشر والتوزيع.

29. السبكي، تاج الدين. (1999). رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب. تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود. بيروت: عالم الكتب.

30. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. (1997). الموافقات. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. ط 1. الرياض: دار ابن عفان.

31. الشعراوي، محمد متولي. (1997). تفسير الشعراوي – الخواطر. القاهرة: مطابع أخبار اليوم.

32. الصابوني، محمد علي. (1981). مختصر تفسير ابن كثير. ط 7. بيروت: دار القرآن الكريم.

33. الطبري، محمد بن جرير. (2001). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة: دار هجر.

34. الطوفي، نجم الدين سليمان بن عبد القوي. (2005). الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية. ط 1. تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية.

35. الطنطاوي، محمد سيد. (1998). التفسير الوسيط للقرآن الكريم. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

36. عبد المحسن، عبد الراضي محمد. (د.ت). الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

37. العثيمين، محمد بن صالح. (2004). تفسير القرآن الكريم «سورة ص». الرياض: دار الثريا للنشر والتوزيع.

38. عمارة، محمد. (2003). معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام. ط 1. القاهرة: دار الشروق.

39. عمر، أحمد مختار عبد الحميد. (2008). معجم اللغة العربية المعاصرة. ط 1. بيروت: عالم الكتب.

40. الغزالي، محمد بن محمد. (د.ت). إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.

41. غلوش، أحمد أحمد. (2003). السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي. بيروت: مؤسسة الرسالة.

42. القرضاوي، يوسف. (2001). السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها. القاهرة: مكتبة وهبة.

43. الكواري، كاملة بنت محمد بن جاسم. (2008). تفسير غريب القرآن. ط 1. بيروت: دار ابن حزم.

44. الكواكبي، عبد الرحمن. (2013). طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع.

45. لوبون، جوستاف. (1991). سايكولوجية الجماهير. ترجمة وتقديم: هاشم صالح. بيروت: دار الساقي.

46. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود. (2005). تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي). تحقيق: مجدي باسلوم. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.

47. المخلوف، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. (1997). الجواهر الحسان في تفسير القرآن. تحقيق: محمد علي معوض، عادل أحمد عبد الموجود. ط 1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

48. المرزوقي، محمد عليان. (1987). حاشية على «الكشاف» ضمن: الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. القاهرة: دار الريان – دار الكتاب العربي.

49. المظهري، محمد ثناء الله. (1412 هـ). التفسير المظهري. باكستان: مكتبة الرشدية.

50. المقدسي، مكي بن أبي طالب. (2008). الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره. إشراف: الشاهد البوشيخي. ط 1. الشارقة: جامعة الشارقة.

51. الهلال، محمد. (2022). تفسير القرآن الثري الجامع: في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي. ط 1. دمشق: دار المعراج – دار جوامع الكلم.

52. النحلاوي، عبد الرحمن. (2007). أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. ط 25. دمشق: دار الفكر.

53. يحيى بن سلام. (2004). تفسير يحيى بن سلام. تحقيق: هند شلبي. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.